أنماط شخصية الآخر (في الأدبين العربي والإسرائيلي) وتحديدها للذات

أمين دراوشة

الجزء الأول

مفاهيم الذات والآخر في علم النفس والأدب

«إننا نسديكم شيئاً رهيباً، إننا نحرمكم من الأعداء».
مستشار لغورباتشوف في حديث له مع الأميركيين

مقدمة

تناولت في دراستي، مفهوم الذات والآخر في علم النفس، وعلم الاجتماع، والأدب. وأوضحت كيف أن صورة الآخر لا يمكن أن توجد إلا بمقابل صورة الذات. فالذات تتكون من الخبرات والذكريات والتفاعلات مع الآخرين، وتتشكل صورة الآخر بالنسبة لها، عبر صراعاتها مع الآخر، حيث تنسب سمات نفسية واجتماعية وسلوكية وفكرية إلى الآخرين، وقد تكون الذات فردية، أو تعبر عن ذات جماعية.

إن النظرة إلى الذات تبقى «محكومة بالبحث عن «الضد» ولا تتبلور الهوية (الوطنية) من خلال عناصرها الذاتية، وإنما من خلال اكتشاف خصم وتحديده وتحاول تمييز نفسها منه». [1]

فصورتنا عن الآخر لا شك أنها تعكس صورة الذات. والذات دائماً ما تحاول تضخيم الصفات الإيجابية فيها، والتغاضي عن كل العيوب والنقص، في مقابل الحط وتحقير الآخر، من أجل إثبات تفوق الذات على الآخر العدو.

والصورة عن الآخر تتشكل حسب الواقع الذي تنمو فيه، فإذا كانت الذات (الفردية والجماعية) قوية في ثقافتها، وتحيا في مجتمع مزدهر ومتطور، ومتماسك، فإن الآخر لن يشكل عقبة أو عدواً. ولكن عندما تفقد الذات مناعتها وقوتها، وتضعف ثقافتها وتتضاءل في محاولة لحماية ذاتها، فإن الآخر يصبح عدواً، مهدداً وحدة الذات ويعمل على تشرذمها وتذويبها.

إن مجتمعاً قوياً وذا مناعة وطنية صلبة، وحراً وديمقراطياً، ويفرد مساحة شاسعة للتعدد، ويسمح بالتعبير عنه دون خوف، وينطلق من مبدأ الاعتراف بشرعية الآخر، وحقه في أن يكون مختلفاً، يمكن له أن يبدع، وينطلق في فضاء الحرية، ويحوي في ثقافته مساحة للآخر، حتى وإن كان عدواً حقيقياً لا وهماً.

«وانفتحت الطرق، وعبرنا إلى الداخل مهزومين،
عبرنا عمالاً، وأجراء، وعمال تنظيف،
وقذارة، ولعنة، وقهراً».
عبد الله تايه، من رواية «العربة والليل»

«إنهم يكرهوننا على ما يبدو بسبب سمونا كما بسبب مساوئنا».
ثيودور هرتسل، من كتاب «**الدولة اليهودية**»

أولاً. الذات

لا تعي الذات نفسها إلا عبر الآخر، بالاتصال والتفاعل والتشابك معه. والأمر سيان كما يقول تودروف بين (أن تعرف الآخرين أو تعرف ذاتك، فهما شيء واحد. يجوز إذن للآخرين وللذات أن يكونا في المرآة عينها).[2] وهذا التلازم بين صورتي الذات والآخر، بان واضحاً في أعمال مفكري علم النفس الاجتماعي وعلمائه، الذين درسوا واهتموا بالمواضيع المتصلة بالذات والآخر.

وقسم فرويد مؤسس علم النفس الشخصية إلى مفاهيم عدة، وهي: الهو، والأنا، والأنا والأعلى، وسمى (النفس البشرية بشخصيتها وذاتها بالأنا، والأنا هي «الذات»).[3] والذات هي «مجموع الأفكار والمعتقدات والأداء وكل ما يمت إلى الفرد بصله في مجال حياته».[4]

ومفهوم الذات عند ربر «هو تكوين معرفي منظم ومتعلم للمدركات الشعورية والتصورات والتقييمات الخاصة بالذات، يبلوره الفرد، ويعتبره تعريفاً نفسياً لذاته، ويتكون مفهوم الذات من أفكار الفرد الذاتية المحددة الأبعاد، من العناصر المختلفة لكينونته الداخلية أو الخارجية).[5]

ويعرف ويليام جيمس الذات أو الأنا في معناها العام بـ«أنها المجموع الكلي لكل ما يستطيع الإنسان أن يرى أنه له جسده، وسماته، وقدراته، وممتلكاته المادية، وأسرته، وأصدقائه، وأعداءه، ومهنته، وهواياته».[6]

واعتبر فرويد «الأنا السلطة الإدارية للشخصية»،[7] ما يعني أن الأنا هي التي تتحكم في الـ هو، والأنا الأعلى، وهي التي تحافظ على مصالح الشخصية وسلامتها ككل. وعندما تقوم بوظائفها بشكل صحيح وسليم، يظهر التوافق والانسجام في الشخصية، أما حين يسيطر الـ «هو» أو الأنا الأعلى، وتخضع الأنا لإحداهما، فإن ذلك يؤدي إلى عدم الاتزان والاضطراب.

من ورشة عمل حول توظيف عباءة الخبير.

والأنا هي فكرة الإنسان عن نفسه، أو هي «مجموعة من العمليات السيكولوجية النفسية التي تحكم السلوك والتكيف كالتفكير والإدراك والتذكر والإرادة». [8]

ويورد د. عبد الرحمن عدس ود. محي الدين توق، في كتابهما المدخل إلى علم النفس، [9] أربع كيفيات لإدراك الذات:

أولاهما، النظر إلى الذات كأداة للعمل؛ أي أننا مسؤولون عن أعمالنا، فنحس بالسعادة والفخر إذا وصلنا إلى تحقيق شيء إيجابي، ونحس باللوم والذنب إذا فشلنا بتحقيق ما نصبو إليه. وبما أنه يغلب علينا التفكير الحسي، فإن الجسد يساعد في إدراك الذات، لأنه أداة الإحساس، ولكونه يستطيع عمل الأشياء. «إن التهديدات الموجهة للجسد هي تهديدات للذات . . . إن أحد السبل في التعرف على الذات هو إذن شعورنا بأنها بمثابة ضابط أو موجه للجسد». [10]

أما الكيفية الثانية، فهي النظر إلى الذات على «أنها خيط متصل من الخبرات والذكريات. إن إدراك الذات بهذه الصورة، يسهل علينا دراستها والتنبؤ بأحوالها، لأن الحاضر يكون قائماً على الماضي». [11] ولا يقوم المستقبل إلا عليهما معاً.

والكيفية الثالثة هي النظر إليها على «أنها نتاج الخبرات والتفاعلات مع الآخرين. إن مفهومنا لذاتنا يحدده إلى درجة كبيرة مستوى تقبل الآخرين أو رفضهم لنا». [12] فالإنسان غالباً ما يستخدم الحيل الدفاعية لإنكار ما لا يحبذه الآخرين فيه، عوضاً عن تقبل ذلك ومحاولة إصلاحه. والإنسان العقلاني لا ينكر ما فيه من عيوب يراها الآخرون، إنما يعمل على معالجتها والتخلص منها قدر الإمكان.

أما الكيفية الرابعة، فهي النظر إليها على «أنها مجموعة من القيم والأهداف. إن بعض المفاهيم الدارجة مثل الطموح، والغيرة، والغرور، والعار، والذنب، وغيرها يتعقد معناها تماماً إذا تم إدراكها منفصلة عن الذات». [13]

وبنيت مجموعة القيم والأهداف، بحيث تقدر على إثارة إما الشعور باحترام الذات وإما الشعور بدونيتها. فالقيم والاتجاهات والتفاعلات مع الآخرين التي تتشكل الذات من خلالها، تجعلنا قادرين على فهم طبيعة تلك الذات واتجاهها العام.

ومن الذين ساهموا في بناء وتأسيس النظرة الاجتماعية لمفهومي الأنا والآخر تشارلز كولي، الذي اعتبر أن الذات أو الأنا «هي مركز شخصيتنا، وأنها لا تنمو ولا تفصح عن قدراتها إلا من خلال البيئة الاجتماعية، وأن الشعور بالأنا لدينا لا يبرز دون أن يكون مصحوباً بذوات الآخرين». [14] وكذلك جورج هربرت، الذي يرى أن الذات تتطور لدى أي فرد «كنتيجة لعلاقة هذا الفرد بالعمليات والنشاطات والخبرات الاجتماعية من جهة، وبالأفراد الآخرين من جهة أخرى». [15]

وبذلك نرى أن الذات تبنى من خلال التنشئة الاجتماعية، وهي عملية دائمة ومستمرة وتراكمية تفاعلية، بما تتضمنه من تأثر وتأثير. والذات لا تدرك وجودها أوتوماتيكياً، بل عبر إدراك الآخر والتفاعل معه، فالآخر يساهم في بناء الذات وتطورها. فمن خلال التفاعل والتشابك والصراع مع الآخر، ومعرفة حجمه ودوره تعي الذات وجودها؛ سواء أكان هذا الآخر بعيداً أم قريباً (الدول القطرية العربية).

ومن خلال الإدراك والوعي، تكوّن الذوات من نفسها مراكز محورية، وتجد لنفسها آخر توظفه لمصلحتها، لتحفظ مركزيتها وتوازنها. «ولا تواجه المجتمعات شيئاً ملحاً طارئاً في عملية البناء والحفظ والتطور الذاتي الثقافي، مثل مواجهتها للأزمات الداخلية والخارجية، حيث تتحصن الذات حول مركزها، سر وجودها وجوهر استمراريتها، تؤكده ويؤكدها، تحميه وتحتمي به. وكثيراً ما تلجأ الذات إلى تضخيم مزاياها، ولو على حساب تبخيس الآخر. فما دام الدفاع عن النفس مبدأً مشروعاً، فكل أسلحته مشروعة مبررة». [16] فالنظرة إلى الذات والهوية الوطنية لا تنشأ عبر عناصرها الذاتية، بل من البحث عن الآخر، وتحديده كعدو، حيث تقنع الذات نفسها بأنها كيان متميز ومتفرد عنه.

من ورشة عمل حول توظيف عباءة الخبير.

وتعتقد آنا أندرينكوفا أنه من الشروط الأساسية لبناء وحدة سيكولوجية اجتماعية هو اختراع صورة للآخر، فبواسطة هذه الصورة «تتحقق نزعة الفرد إلى خلق انشطار بين «النحن» و«الهم»، وإلى تثمين الفروق القائمة بين هؤلاء وأولئك. تلك هي النزعة التوّاقة إلى إنشاء «نحن» ذاتية تقرن بكل ما هو آخر لكي يصلح فصلها عنه لاحقاً. وقد تكون للآخر أولوية على الأنا في هذه الحالة».[17] فمفهوم العدو لدى الاحتلال الإسرائيلي، يتسبب في التماسك الداخلي، وتأمين المصالح المتضاربة في الداخل. وتكاتف وتعاون كافة أطياف الشعب في مواجهة الآخر البراني.

ويقول سمنير «كلما قويت الجماعة التي ينتمي إليها الآخر، وصارت على مقربة كبيرة من الجماعة التي ينتمي إليها الأنا، إلا وقوي معها الشعور بالعدوانية الخارجية، وقوي التماسك داخل مجموعة الأنا».[18]

مما سبق يتضح أن الأنا الفردية أو الجماعية تتبدى عبر الشخصية، وتنمو من الخبرات والتجارب التي يتعرض لها الإنسان، وبالتالي يؤثر عليها الواقع، وما تحمله من مميزات نفسية واجتماعية. إن عملية إدراك الذات عملية ليست سهلة، فهي عملية مستمرة، ويمكن التوصل لفهم الذات عبر الخبرة والنضج.

ثانياً. الآخر

«فالعدو مطلب من أجل الجهود السامية للشخصية».
ثيودر هرتسل، من كتاب «**دولة اليهود**»

«أحضر لي فنجان قهوة وسيجارة، أمرت كابتن يوسي وأنا أجلس على الكرسيّ بجوار مكتبه وأضع رجلاً على أخرى. لم يعرف كابتن يوسي كيف يتصرف مع هذا الانقلاب في العلاقة».
سعاد العامري، من رواية «**شارون وحماتي**»

لا شك أن صورة الآخر، لا توجد إلا مقابل صورة الذات. فهما مفهومان غير منفصلين، ومتعلقان بعضهما ببعض، ولا يمكن الحديث عن أحدهما دون ذكر الآخر. وقد طور العالم جيمس بالدوين «رؤية تفاعلية اهتم فيها بعلاقة الذات بالآخر، حيث شدد على أن «الأنا والآخر» مولودان معاً».[19]

إن الوعي وإدراك الذات يستلزم بالتأكيد الوعي بالآخر، ويقول الباحث الفرنسي جان فارّو «الشرط الرئيسي الذي لا بد منه لكي يوجد «آخر»، حتى ولو لم يكن الشرط الوحيد، هو وجود «أنا» (ضمير المتكلم المفرد)».[20]

والباحثة التونسية أسماء العريف «أمسكت بالآخر كـ «جزء من «الذات»، ورأت أن نفي الآخر بتر للذات؛ بمعنى أنه قطع لجزء منها هو «الجزء الملعون» من الذات. هذا على الرغم من أنه ضروري لاكتشافها، إذ تصور الذات لا ينفصل عن تصور الآخر».[21]

وتعتبر صورة الآخر، في غالبية الحالات، حسب قول الباحث عبد الجليل حليم «عن موازين قوى وعن علائق تراتبية، وعن علاقات نزاعية، ولذلك قلما يكون المهيمن والأقوى والأعلى في موقف من يعاين الآخر، فإن الصورة التي سيحملها أو يقدمها عن الآخر لا يمكنها سوى أن تعبّر عن الشعور بالتفوق عليه وعلى الازدراء والاحتقار، بل والكراهية إزاءه. وعادة ما يكون هذا الآخر شعباً مجاوراً أو شعباً لنا احتكاكات به على مر التاريخ . . . فتعبر الصورة التي ننحتها عن قوالب جاهزة ثقافية ودينية واجتماعية، ربما تكون موغلة بجذورها في التاريخ».[22]

وهنا لا بد من التأكيد على أن صورة الذات وصورة الآخر معرضتان للتغير والتعديل، وأن نظرتنا إلى ذواتنا وإلى الآخرين، لا تكون عادة سليمة وصحيحة، بل يختلط فيها الواقعي مع المثالي. فنحن لا نظهر للآخرين حقيقة أنفسنا، بل ما نرغب في إطلاع الآخرين عليه. أما بالنسبة لصورة الآخر، فقد نشكل عنه صورة انتقائية، من عناصر نختارها، لترسخ في أذهاننا، ونتجاهل عن قصد أو من دون قصد عناصر لا نريد الاعتراف بها.

والباحثة دلال البزري، تتناول قضية الوعي بالآخر، من كونها تقوم على مفارقة قائمة على معطيين بديهيين؛ الأول: «أنه لا يوجد «آخر» من دون الوعي بوجوده. يمكن لهذا «الآخر» أن يعيش طويلاً، في بقعة ما، في زمن ما، ولا نشك لحظة في أننا قد نلقاه يوماً فيصير آخر».[23] وهذا ما حصل للعرب، الذين صدموا بالآخر الغربي، بعد حملة نابليون العام 1798، وفي البداية أعجبوا بالآخر وحاولوا التشبه به، ثم حاربوه.

أما المعطى الثاني، فيقوم على أن العلاقة بالآخر مبنية (على قاعدة غالب ومغلوب، ومن دون هذه القاعدة، يضمحل الآخر ويصبح عدماً . . . مندمجاً تمام الاندماج، بحيث يصبح الأنا. كل الحملات التي تخاض ضد الآخر ترمي إلى التشبه والتماثل».[24]

ويتضح مما سبق، أن الآخر ضرورة «إذ ربما حمل التصور عن الآخر إلى مصاف البلاء الحسن . . . وفي رواية لرشيد ميموني، يقول الراوي حزينا: «بعدما حرمنا من الأعداء، أصبحنا على أشد الاستعداد لتوجيه أفواه بنادقنا بعضنا ضد بعض». ليس العدو في كلتا الحالتين سوى التصور الذي يوجب التطلع إلى «الآخر»، وإلا فما هي تلك الحاجة الملحّة لإيجاده، أو حتى اختراعه فيما هو موجود».[25]

فالآخر يحتاج فرصة للظهور وحسب، لكي تتكون الصورة عنه، وهي حاجة مزدوجة الأبعاد كما تقول الباحثة دلال البزري:

ا. **تبلور الهوية**: ونعني حاجة الإنسانية للكشف عن الهوية عبر الاتصال والاحتكاك بالآخر، وهي حاجة قديمة. ويقول إدوارد سعيد عن أهم العلاقات التي تجسد الآخر في العصر الحالي إن «أزمة الهوية لا تظهر إلا في المجتمعات التي تدخل في ديناميكية الحداثة».[26]

والأزمة هنا تعني تعريف وتحديد الأنا عبر جهد مؤلم أو مفرح. والأزمة لم تبدأ إلا مع اكتشاف الغرب أو الحداثة، فهي إذن «وظيفة هوياتّية (Identitaire) لدي طرفي الآخر: الغالب والمغلوب. لكن الفرق يكمن في كون الغالب هو المبادر والقادر على طرحها . . . جاعلاً من هذه الوظيفة لدى المغلوب "أزمة" تدوم بدوام غلبته".[27]

ب. **تنظيم الخصومة وشرعنتها**: ولو رجعنا إلى القبلية وهي أكثر التركيبات الاجتماعية بساطة "لوجدنا أن "الآخر" فيها مكوّن من مكوناتها البنيوية، على الرغم من شدّة حركيته. يقول المثل البدوي: "أنا ضد أخي، أنا وأخي ضد ابن عمي، أنا وأخي وابن عمي على الغريب". هذا الغريب متحرّك بدوره، تبعاً للهدف الكامن خلف تحديده".[28]

إذن، لا بد من آخر يتصف بمواصفات متصورة، تدفع نحو الصراع معه؛ سواء وصف بالعدو أو الجار، فالآخر هو «من ليس له لا الأجداد أنفسهم ولا الآلهة نفسها، ولا حتى اللغة نفسها التي لنا. إنّ ما أنعته بـ «آخر-النحن» بالتضاد مع «آخر-الأنا»، سابق في وجوده على اختراع الوعي».[29] وهو يؤدي دورة في وقتنا الحاضر في التصفيات العرقية في أمكنة عدة، وفي الصراعات القبلية في السودان، وغيرها. وكذلك في العنصرية البغيضة للاحتلال الصهيوني.

فالأنا لا تحس بوجودها إلا إذا وجد الآخر، ويرتبطان بعلاقة مع بعضهما؛ سواء أكانت مباشرة أم غير مباشرة، ويمكن أن يكون الآخر صديقاً أو عدواً أو قومية أو دولة أو حتى ديانة. كما أن صورة الآخر تتشكل وتتحدد وفقاً للعلاقة مع الأنا سلباً أو إيجاباً. وصورة الآخر في حالة الحرب تختلف عنها في حالة السلم، فنرى بالآخر ما نريد أن نراه، ونغمض أعيننا بعمد أو دون قصد عن أمور كثيرة لا نريد رؤيتها والاعتراف بها.

وبالتالي، يبدو على الأغلب أن الآخر لا يكون إلا متوحشاً ومتخلفاً، وهذه صورة نابعة من ضغائن وأحقاد مزروعة في لا وعي الأفراد، وتحدد موقعنا من الآخر بشكل كبير.

لذلك، عادة ما تقوم مراكز قوى اجتماعية ومجموعات ضغط، ومفكرون برعاية وتغذية موقفنا من الآخر وتحديده، لأنها بذلك تجد تبريراً للسياسية التي تتعامل بها مع الآخر، من أجل استغلاله والهيمنة عليه.

فنكران الآخر ساكن البلاد الأصلي، المتخلف والمتوحش والقذر ومحاولة سلبه «كل حق في التثقف وفي التحضر وحتى في الانتماء للإنسانية. ألا نراه يسلب منه الحق في أن تكون له نفس؟ فكل هذه الحقوق حكر على الإنسان الأبيض والمتحضر الذي منحته ثقافته استعداداً لسيادة باقي الشعوب، فعليه أن يساعدها على بلوغ طور الحضارة، أي أن يساعدها على التنكر لثقافتها الخاصة لتتبنى ثقافته المهيمن. والأمر هذا منعوت في اللغة الأنثروبولوجية الشائعة بالتثاقف».[30]

وحرمان الآخر من ثقافته واغتصاب ملكيته، «تلك هي أفضل الطرق لبتر جذوره وتشييئه»،[31] وبالتالي السيطرة عليه ودمجة في النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي الجديد المفروض عليه، وذلك بالتأكيد أبشع أنواع الاستلاب.

وهنا علينا أن لا نغفل المرامي الاستعمارية من وراء، حرمان الآخر من أرضه وثقافته وجزّه من جذوره وتربته، من أجل ضمه ودمجه في النظام الجديد، المراد فرضه عليه. فالمستعمر الذي يؤمن بأنه أصل الحضارة، وصاحب منهاج العلمية والتطور، وأنه الوحيد الذي يملك العقلانية، لن يرى في الآخر سوى موجود متخلف وبدائي.

من ورشة عمل حول توظيف عباءة الخبير.

صورة الأنا الوطنية العربية في مواجهة العدو الإسرائيلي

«اسمع يا أمير، حين نصل تل أبيب يصبح اسمي «افراهام» لا إبراهيم».
سميح القاسم من رواية «**الصورة الأخيرة في الألبوم**»

تحدثنا عن أن الأنا هي مجموع القيم والاتجاهات والمعتقدات، ونلاحظ أن صورة الأنا الفردية لا تختلف عن الأنا الجمعية، «وصورتها لدى الجماعة تبدي الخصائص نفسها التي تبرزها الذات الفردية مع الاختلاف بأن تصور هذه الذات يوجد لدى تعدد من الجماعات الإنسانية من أن يوجد لدى فرد إنساني واحد». [32] وأن الأنا الجمعي (العرب) يتطور سلباً أو إيجاباً حسب الأحداث التي تقع داخل الجماعة المكونة للأنا. والأنا الجماعية تحمل صفات وخصائص، يتعلمها أفراد الجماعة من خلال التربية والتنشئة الاجتماعية. ويمكن للأنا الجمعي أن تتضخم أو تصغر، بحسب أوضاع الجماعة من حيث الانفتاح على الآخر أو التقوقع داخل شرنقة.

ونتيجة الصراع العربي الإسرائيلي، لبست الذوات الوطنية القومية العربية ثوبين؛ الأول: لتظهر به أمام الخارج، والثاني: تقدم به نفسها للمجتمع الداخلي، لتحاول تدعيم سلطتها فيه. وعبر معرفتين تأسست هذه الذات، كما يقول الدكتور مهنا حداد، الأولى مثالية، والأخرى واقعية. «لقد كانت الذات المثالية نوعاً من الإستراتيجية التي وضعتها الدولة (الذات الوطنية) لتقدم نفسها من خلالها للذوات الأخوات والخارج، ولكنها كانت أيضا، وعلى الرغم من أنها كانت مصدراً لرسم الأهداف المستقبلية، مصدراً لخداع النفس». [33]

وظهر هذا جلياً في حرب 1948، عندما دخلت الدول القطرية العربية في حرب مع المنظمات الصهيونية بعد إعلان دولة إسرائيل، وكانت الخطابات الموجهة للداخل، تتحدث عن أن المنظمات الصهيونية عبارة عن عصابات وقطاع طرق، وأنها لن تصمد أمام القوى العربية، وستسحق وتدمر بسهولة، وتغذي الإنسان العربي بأوهام، وكانت النتيجة هزيمة القوى العربية بطريقة مذلة، وأصبحت إسرائيل القوة الرئيسية في الشرق الأوسط.

ولم تكن الصورة التي رسمت لإسرائيل، ناتجة عن معرفة بالحركة الصهيونية، «ولكن بناء على صورة اليهود كما هي مصورة في المصادر الدينية سواء الإسلامية أو المسيحية والتاريخ العربي الإسلامي». [34]

ويورد حداد مصدراً آخر لخداع النفس والمواطن العربي في الذات الوطنية القومية، وموجوداً في النظام التعليمي، إذ تأسس التعليم في الوطن العربي في علاقة تشابك مع التعليم الديني. وظلت مضامين التعليم، وبالذات «بالتعليم الأدبي، اللغة، والتاريخ، والتوجيه الاجتماعي والسياسي، مقتصراً على مثاليات لا وجود لها في الواقع». [35] فالمنهاج التعليمي مليء بالدعوة إلى الصفات الإيجابية كالتعاون، والتعاضد، والحرية، والأمانة، وتكافؤ الفرص، والشرف، ولكن الإنسان العربي، كان لا يرى سوى النقيض من ذلك على أرض الواقع، حيث يرتع الفساد والاستبداد.

صورة الذات والآخر في الأعمال الأدبية

«اندلعت المظاهرات وشعر بالفرح والسرور . . . وكان العلم يخفق، وحدث نفسه، منذ زمن لم أرك أيها العلم الحبيب».
أديب رفيق محمود عن رواية **الحصار**

«لقد اعتاد المسكين أنه في كل مرة يصل لبيت يهودي يدخلونه حالاً . . . للاستحمام».
أ. ب. يهوشواع من رواية **العاشق**

ويمكن تعريف صورة الذات هنا بأنها «نسق تصوري تطوره الكائنات البشرية، أفراداً أكانت أم جماعات، وتتبناه، وتنسبه إلى نفسها. ويتكون هذا النسق التصوري من مجموعة من الخصائص الفيزيقية والنفسية والاجتماعية، ومن عناصر ثقافية كالقيم، والأهداف، والقدرات التي يعتقد الأفراد أو تعتقد الجماعة أنها تتسم بها». [36] أما صورة الآخر، فهي «عبارة عن مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والفكرية والسلوكية التي ينسبها فرد ما، أو جماعة ما، إلى الآخرين». [37]

إن العلاقة بين الأنا والآخر، بغض النظر إن كانت بين شعوب أو جماعات، تنتج صور الذات وصورة الآخر، و«من دون معرفة الآخر عملياً يظل التعامل معه في حدود الصورة التي نراها أو نريدها أن تكون، حتى ولو كانت هذه الصورة غير مطابقة للواقع». [38] كما يقول الباحث فتحي أبو العينين. وهذه العلاقة وما تنتجه من صور شغلت الإبداع الأدبي في مختلف الثقافات.

لكن، كيف يقوم العمل الأدبي في تصوير «الأنا» و«الآخر»؟ يقول د. شاكر عبد الحميد «هنا تعمل حواس المبدع بطريقة انتقائية. فليس كل ما تتلقاه الحواس يصلح مادة للعمل الفني. وكثير من

الأشياء تخزّن في الذاكرة: ملامح الأشخاص، طرائق كلامهم، تعبيرات وجوههم، إشارات أيديهم، تفاعلات البشر ومواقفهم، تغييرات الطبيعة والمجتمع، صراعات الإنسان مع البيئة، ومع الذات ومع الآخر. ثم يحاول المبدع تنظيم كل ما سبق بشكل جيد». [39]

فالأعمال الأدبية مصدرها الواقع الذاتي، والاجتماعي، وبالتالي فالعمل الأدبي واقعي المصدر والدلالة، على الرغم من الخصوصية الإبداعية. فإنتاج المبدع هو عصارة فكره، المتأثر بخبرته، وآرائه الاجتماعية وموقعه الاجتماعي، وما يحدث في العالم من صراعات وعلاقات وتنافس. وبذلك نستوعب لماذا كانت الرواية من وجهة نظر مفكرين مثل هيغل ولوكاتش «أداة معرفة وشكلاً تعبيرياً كاشفاً لتحولات عميقة في بنيات المجتمع ورؤاه للعالم». [40]

ونفهم إصرار باختين على اعتبار الخطاب الروائي ظاهرة اجتماعية. فهو «اجتماعي في مجموع مجالات وجوده وعناصره، ابتداءً من الصورة السمعية، ووصولاً إلى التصنيفات الدلالية الأكثر تجريداً». [41]

ويخبرنا أبو العينين، عن كيفية التحليل والتفسير لصورة الأنا والآخر في النص الأدبي «فإذا كنا نبحث في النص عن صورة الذات العربية وصورة الآخر الحضاري الغربي، فإن الوحدتين الملائمتين للتحليل هما: الشخصية الروائية، والموقف الروائي. وإذا كان الهدف العام للبحث هو الفهم الشامل للعمل الأدبي ولدلالاته العامة، فإن هذا الهدف لا يكتمل تحقيقه إلا بتأسيس العلاقة بين العمل وسياقاته الخاصة والعامة». [42]

ولا بد من التذكير هنا أن أنماط صورة الآخر غير ثابتة، بل يمكن أن تتغير وتعدل وفق رؤية من يرسم هذه الصورة، ووفق ارتباطها بمجريات الأحداث التي تتشكل الأنا والآخر من خلالها.

وتأسيساً على ما سبق، يمكن لنا أن ندرس طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر في روايات عدة من إنتاج أدباء فلسطينيين أو عرب، وكتاب إسرائيليين، وذلك من خلال:

- الأنا الجماعية مشكلة من مجموع الشخصيات التي ينتمي إليها الكاتب في الرواية.
- الأنا الفردية ويمثلها المؤلف، ونقصد بها كيف ظهرت الأنا أو الذات الجماعية في الرواية، وما هو موقفه منها.
- الآخر الذي لا ينتمي لقومية المؤلف، كونه يمثل الطرف الآخر في الصراع مع الأنا والذات الجماعية، وموقف كل منهما منه.

خاتمة

حاولنا في هذه الدراسة توضيح مفهومي الأنا والآخر، في علم النفس والاجتماع والأدب، والعلاقة المتشابكة بينهما. وقلنا إن العلاقة بينهما غالباً ما تكون قائمة على الاختلاف والتضاد، وإن الأنا لا توجد إلا في مقابل الآخر، فهي لا تشعر بوجودها إلا بوجود الآخر.

والأنا تكون على علاقة بالآخر إما بشكل مباشر وإما غير مباشر، فهو يمكن أن يكون صديقاً أو عدواً، دولة أو أمة أو حتى طائفة دينية.

ولا شك في أن صورة الآخر تختلف حسب الأوضاع، فلأنا تصوغ علاقتها بالآخر وفق علاقتها الودية أو غير الإيجابية معه، وتبذل جهدها في تثبيت الصفات السلبية عنه في ذهنها، وتسقط أي سمات إيجابية له، في محاولة لتأكيد الذات.

وعملية صوغ الأنا صورة عن الآخر، هي مسألة ليست استاتيكية، بل هي قابلة للتحوير والتغيير، وفق الهدف من رسم هذه الصورة، أو بسبب أوضاع تاريخية معينة تؤدي إلى تغير في بعض عناصر الصورة الأساسية.

فالآخر ضرورة لتوكيد الذات، والعلاقة قائمة بينها على قاعدة منتصر ومهزوم، بل إن وجود الآخر وتصوره قد يصل إلى مصاف البلاء الحسن كما تقول الباحثة دلال البزري، وتورد في أحد أبحاثها قولاً لمستشار غورباتشوف، بعد اضمحلال الاتحاد السوفيتي، في حديثه للأمريكيين: «إننا نسديكم شيئاً رهيباً، إننا نحرمكم من الأعداء». [43]

ومن المعروف أن الأمريكيين والغرب بصفة عامة وجدوا لهم عدوا آخر، هو الإسلام الذي جعلوا منه بعبعاً رهيباً، يريد أن يدمر الذات الغربية، ويهدد هويتها.

ولا بد من الإشارة هنا، إلى أن هذه الدراسة مقدمة لمجموعة من الدراسات التي ستنشر في الأعداد القادمة حول موضوع الأنا والآخر، من خلال دراسة مجموعة من الروايات لكتاب فلسطينيين وعرب، التي سنبحث فيها كيف نظر الفلسطيني إلى ذاته وإلى الآخر الإسرائيلي. كما سنبحث كيف ساهمت الشخصية الفلسطينية في تحديد الشخصية الإسرائيلية من خلال بعض الأعمال الأدبية الإسرائيلية.

أمين دراوشة
كاتب يقيم في رام الله

الهوامش:

[1] ساري، سالم. "الذات العربية المتضخمة: إدراك الذات المركز والآخر الجواني" في: لبيب، الطاهر (تحرير). (1999). **صورة الآخر: العربي ناظراً أو منظوراً إليه**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، ص: 377.

[2] سيبرياني، روبارتو، وماريا مانسي. "**ما بعد الأحكام المسبقة**"، في: لبيب، الطاهر، مرجع سبق ذكره، ص: 150.

[3] علام، عمرو (2005)، **الأنا والآخر (الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر)**، القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، ط1، ص: 9.

[4] المشاقبة، محمد. (2008). **مبادئ الإرشاد النفسي للمرشدين والأخصائيين النفسيين**، عمان: دار المناهج للنشر والتوزيع، ص: 38.

[5] المرجع السابق، ص: 38.

[6] أحمد، محمد مصطفى. (1995). **خدمة الفرد (النظرية والقياس)**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص: 49.

[7] المرجع السابق، ص: 51.

[8] الصديقي، سلوى، وجلال الدين عبد الخالق. (2004). **نظريات علمية واتجاهات معاصرة في طريق العمل مع الحالات الفردية**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص: 341.

[9] عدس، عبد الرحمن، ومحي الدين توق. (1995). **المدخل إلى علم النفس**، القاهرة: دار الفكر للطباعة والنشر، ط5، ص: 305-306.

[10] المرجع السابق، ص: 306.

[11] المرجع السابق، ص: 306.

[12] المرجع السابق، ص: 306.

[13] المرجع السابق، ص: 306.

[14] أبو العنين، فتحي. "صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي"، في: لبيب، الطاهر، مرجع سبق ذكره، ص: 812.

[15] المرجع السابق، ص: 812.

[16] ساري، سالم. مرجع سابق، ص: 376.

[17] أندرينكوفا، آنا. "صورة الآخرين كخلفية لتصور الذات في المجتمع الروسي" في: لبيب، الطاهر، مرجع سبق ذكره، ص: 158.

[18] المرجع السابق، ص: 158.

[19] علام، عمرو. مرجع سابق، ص: 11.

[20] فارّو، جان. «الآخر بما هو اختراع تاريخي»، في: لبيب، الطاهر (محرراً)، مرجع سبق ذكره، ص: 45.

[21] المرجع السابق، ص: 22.

[22] حليم، عبد الجليل. «الفلاحون المغاربة في الإثنولوجيا الكولونيالية: بين الجمود وقابلية التحسّن» في: لبيب، الطاهر، مرجع سبق ذكره، ص: 45.

[23] البزري، دلال. "الوعي بالآخر وقلّة الإلمام به، دلال البزري" في: لبيب، الطاهر، مرجع سبق ذكره، ص: 103.

[24] المرجع السابق نفسه، ص: 103.

[25] المرجع السابق، ص: 108.

[26] المرجع السابق، ص: 108.

[27] المرجع السابق، ص: 108.

[28] المرجع السابق، ص: 108.

[29] فارّو. مرجع سبق ذكره، ص: 51.

[30] بوطالب، محمد نجيب. "صورة المجتمع العربي الإسلامي" في: لبيب، الطاهر، مرجع سبق ذكره، ص: 451.

[31] المرجع السابق، ص: 451.

[32] حداد، مهنا. "أثر الصورة الذاتية في الموقف العربي من دولة إسرائيل"، في: لبيب، الطاهر. مرجع سبق ذكره، ص: 332.

[33] المرجع السابق، ص: 346.

[34] المرجع السابق، ص: 347.

[35] المرجع السابق، ص: 347.

[36] أبو العنين. مرجع سبق ذكره، ص: 813.

[37] المرجع السابق، ص: 813.

[38] المرجع السابق، ص: 813.

[39] علام. مرجع سبق ذكره، ص: 15.

[40] أبو العنين. مرجع سبق ذكره، ص: 821.

[41] المرجع السابق، ص: 821.

[42] المرجع السابق، ص: 821-822.

[43] البزري، مرجع سبق ذكره، ص: 108.

من ورشة عمل حول توظيف عباءة الخبير.